٢

الضحك من كثرة الحزن ...

أم الخير إبراهيم الدسوقي

هى امرأة علمتها الأيام ألا تشكو.. وألا تطلب.. وألا تتذمر، وألا تندب حظها التعس، وألا تنعى نصيبها الذى أوقعها فى هذا الرجل، عباس النحال، فهو رجل لا يرزق بأكثر من نصف حاجتهم الضرورية من طعام، ثم أرسل أولاده فى شقوق الحياة يبحثون عن النصف الآخر.. دون جدوى.

قبل أن يتزوجها كان رفضه لبنات كثر عُرضن عليه طُرفة يتندر بها الناس. فكيف لهذا القصير النحيل أن يتعالى على:ـ «بنات الواحدة فيهن تفصّل ثلاثة رجال فى حجمه»

وطال معه هذا الأمر حتى صار التشوق لمعرفة من سيختارها عباس هو الحكم المسبق بتميزها عن الأخريات اللاتى رفضهن عباس «فرّاز» البنات.

ولكن أم الخير كانت تملك شعورًا غامضًا أن «عباس» وضع نظره عليها منذ أن قامت بعمل الواجب معه فى ماكينة الطحين عندما جاء بمفرده ليطحن قمحهم وساعدته على ذلك، وعندما أرسل نحوها نظرة امتنان أيقنت أن هناك شيئًا ما قد حدث فى داخله، أما هى فلم تتمكن من تفسير ما حدث بداخلها.

فيما بعد قال لها عباس:

«كنت أخاف أن ترفضينى فرحت أرفض الأخريات حتى تقبلينى، فأنا أحبيتك يا أم الخير، أنت لم تغادرى حضنى كلما هجعت إلى النوم..»

وعندما عاد إليها من زيارته للمفتش الإنجليزى ومعه جنيه ورقىّ كامل زفّ إليها نبأ

obeikan.com

توظفه فى دوّار المواشى، وأكد لها أنها أم الخير اسم على مسمّى..

وهى لم تنكر أن الخير لم ينقطع من منزلهم منذ أنجبت لـه ولـده الأول بـدير فى عـامهما الأول من الزواج، وأن مرتبه الذى كان يسلمه لها جنيه ورقىّ فى حجم الكف، كان يغطى ـ رغم صغره ـ كل مطالب الدنيا حولها، وظل الحال فى يسر معقول حتى أفرغت له أربعة بطون فى بحر ست سنوات، بدير، والسيد، ورابحة، وأمير.

ولا تدرى لم اختلف الأمر بعد أن أفرغت له ستة بطون أخرى فى بحـر تسـع سنوات تالية، وكان الريس عبد المحسن قـد رحـل وأعقبتـه زوجتـه أم عبـاس.. وتعجبـت بعـد رحيلها أن يحل محلها شىء آخر، هو: «النحس..»

وكبر الأولاد، ولم تكبر معهم تصرفات عباس فى محاولة سد حاجتهم.. ولم تكن تفهـم سرّ تصرفاته الغريبة التى كان يوافيها بعدها بقروش قليلة وملاليم عديدة بين يوم وآخـر، ولكنها لا تنسى تلك الليلة التى بكـى فيهـا مـن ولـده بـدير، ولا تنسـى أن «بـدير» ابـن السادسة عشرة لم يأبه بهذه الدموع، بل سخر منها بوجه ملىء بـالغيظ والنقمـة، ولم تفهـم من الموقف الذى أمامها سوى أنها قد تشاجرا فى شوارع المدينة عندما ضبط بـدير والـده يتسول هناك، وأن «بدير» منذ هذه الليلة قرر مغادرة مدرسته قائلًا:

«سأبحث عن عمل أكرم لنا من هذا الهوان».

ومع اشتداد أزمتهم امتد تشرد الأولاد وهاموا على وجـوههم بحثًـا عـن النـواة التـى تسند الزير، ففى أهدأ الأحوال يلقون بخيوط سنانيرهم فى مياه الترعـة للإمسـاك بعشـوة سمك، وفى أخطر الأحوال يتسلقون سور جرن المصلحة للإفلات ببعض القمح أو الذرة ويطلقون سيقانهم للريح قبل الإمساك بهم، وفيما بين الهدوء والخطر اخترع السيد النحـال طالب الصنايع الفاشل فكرة المراهنة على كسر عـدة أعـواد مـن القصـب بضربـة سـكين واحدة.. وسجل دكان بائع القصب فرج حمدان جولات ناجحـة لسـاعد السـيد النحـال الطويل النحيل الذى كسب به سواعد رجال فى ضعف حجمـه، واحتـار النـاس إن كـان هذا الساعد الذى لا يثير شكله الدهشـة هـو مخبـأ هـذه القـوة الكامنـة.. أم أنهـا الحرفيـة واستخدام العقل؟ لكنهم كانوا يهللون له وهو يحمل القصـب جـائزة الرهـان عـلى كتفـه

ويخرج به منتصرًا، وفرج حمدان يهتف به:

ـ «ابسط يا ابن النحال واجرِ روح للغلابة خليهم يحلّوا بُقهم»

وعند أقدامهم يلقى السيد بجائزته الشهية من القصب فيتلقفونها لتتحول بعد قليل من الوقت إلى كومة من القش ثم ينامون وفى أفواههم طعم السكر، أما السيد فينام وفى فمه طعم التحدى والانتصار، ثم الشعور بفخر القوة.

أم الخير لم تضبط نفسها أو يضبطها أحد باكية، ولكنها أحيانًا تفر إلى معانقة الضحك رغمًا عنها كحالها وهى تستقبل جائزة القصب التى يأتى بها السيد فى ليالى الشتاء المظلمة الظالمة.. وكحالها عندما تقدم منها السيد ذات ظهيرة وبيده ورقة قال إنه كتب بها الشعر:

ابكى يا أم الخير ولادك ... واللى نيّل حظّهم
اجتهد عباس يجيبهم ... قبل ما يجيب أكلهم
العيال أكلوا فى بعض ... لما جوعهم عضّهم
«عرفه» كَلْ فى دراع «عاشور» ... «فايزة» عملت زيّهم
عشرة من صنف الغيلان ... والغيلان من صنفهم
تاهوا فى أرض العشيرة ... والعشيرة تهشّهم
ادعى يا أم الخير لربك ... لجل يقصف عمرهم

وضحكت أم الخير من كثرة الحزن، ضحكت لأنها لا تجيد البكاء.. حتى البكاء الذى أطلقته على عباس وهو ممدد بين يديها ـ يوم أن ضربه الناظر أحمد غنيم بالحذاء فى خصيتيه ـ كان بكاء مصنوعًا لم تفلح فى إتقانه.

فعندما انقض الأهالى على ناظر الزراعة بالضرب المبرح لم ينقذه سوى هربه منهم، وجاء العمدة مسرعًا فشاهد عباس النحال يجلس القرفصاء وبجواره شيكارة القمح المسروقة، فهتف به:

ـ «ما شاء الله.. ما شاء الله.. أنت قاعد مرتاح يا ابن الكلب، والبلد كلها ستدخل

السجن بسببك؟.. الناظر بلغ النيابة، والبوليس على وصول.. نام يا ابن الكلب، واعمل نفسك ميت..»

ثم شخط فى أم الخير، والنساء من حولها:

ـ «غطوه وصوتوا عليه يا ولاد الكلب..»

قالوا عنها إنها كانت مضحكة وهى ترفع صوتها بالصراخ والولولة..، حتى أن عباس اضطر أن يصحو من ميتته متألمًا من صياحها المزعج ويشخط فيها:

ـ «خرمت ودنى.. الله يخرب بيتك.. صوّتى بالراحة..»

ثم يعود إلى الموت تاركًا عويل النساء يختلط بضحكهن المستتر على ذلك الميت الذى قام فسب زوجته ثم واصل الموت.

وظل هذا الحادث هو الذكرى المؤلمة المضحكة التى لا تندمل مع الأيام وتزورهما، بلا مقدمات عندما يطير النوم من عيونهما ثم يلفهما الظلام والرغبة المتوحشة.. الرغبة التى لم يملّها عباس حتى بعد أن تقدم به العمر.

قالت له عن يوم حادثه الشهير:

ـ «والله يا عباس، من كان يراك نائمًا بين أيدينا وملفوفًا بالبطانية يظنك ميتًا، وكنت أنسى أنك تمثل الموت فأرقع بالصوت الحيانى والنساء من حولى يفعلن مثلى..»

فيقول لها:

«كنت أخاف أن أتنفس وتكون الحكومة قد حضرت فأفسد ملعوب العمدة، لكن عندما خفت على طبلة أذنى أن يخرمها صراخك العالى قمت فشتمتك..»

ثم ينظر إليها بحب واعتذار وهو يقول بصوت حنون: «عمرى يا أم الخير ما شتمتك إلا وأنا ميت..»

ويلفهما ظلام الغرفة، وظلمة الحياة وهما يطردان النوم للولوج إلى عتبات اللذة التى حفظتهما وحفظاها، ولم يعد يقلل من سحر بهجتها أىّ كلام للأسى كان يردده بين وقت وآخر:

ـ «ها نحن نضحك على الدنيا يا أم الخير من كثرة الهم.. فهمومنا يا بنت الناس صارت

تُضحك ولا تُبكي.. ألم يكن من الممكن أن أنال ميتتي بسبب ركلة حضرة الناظر فى خصيتي، وأموت وأنا متلبس بسرقة شيكارة من القمح، ويكون عباس النحال قد عاش مهانًا جوعانًا ومات مفضوحًا؟..»

وتختصر أم الخير كل آلام حسرتها فى زفرة حارة قبل أن تضمه إلى حضنها وهى تهمس له: «بعيد الشر عليك.. من الفضيحة.. ومن الموت»

ويحمد عباس النحال ربه ـ بينه وبين نفسه ـ أن فضيحته لم تنتشر، ولم يعرف أحد من الناس أن ولده «بدير» قد تعرف عليه وهو يتسول أمام أحد مساجد المدينة، فانتزع الولد الشال الذى تلثم به ـ عن وجهه ـ ثم دفعه فى صدره وراح يسوقه أمامه فى قسوة، ومن لطف الله أن أحدًا ممن يعرفهما لم يشاهدهما وهما فى هذا الموقف المزرى..